قصيدة إسرائيلية في غزة

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

في زمن ما كانت خطورة الكتاب لا تقل عن خطورة العبوة الناسفة اليوم. وبغض النظر عن طريقة التفكير بالنسبة إلى الأنظمة السياسية بشأن الكتاب في ما مضى. لكن هل كان يستحق ذلك العناء المكلف للسلطات آنذاك، يبدو هذا السؤال مفيدا للغاية ونحن نتحدث اليوم في عصر رقمي مفتوح عن إجراءات فعلية لحكومات عربية في الاستمرار بالمنع في زمن مقتل حارس البوابة أصلا.

لا يوجد أي معنى لمنع ومصادرة كتاب، بغض النظر عن مضمونه، غير قمع حرية التفكير والكلام. فما بالك بقصيدة؟ تأثير النص هنا يكتفي بعمقه التعبيري والثقافي ولا يمكن تحميله أكثر من ذلك، باعتباره عبوة ناسفة محرضة على العنف.

عادة ما يتم ربط فكرة المنع للنصوص العبرية الأدبية منها والسياسية، مع تاريخ النظرة السياسية العربية حيال إسرائيل ككيان لا يمكن القبول به في إجراء حكومي يحول دون تقديم النتاج الفكري والأدبي للقارئ العربي.

اليوم عندما أطالع كتاب "العاقل تاريخ مختصر للنوع البشري" لعالم الاجتماع الإسرائيلي يوفال نوح هراري، مثلا، لا أفكر بإسرائيلية المؤلف أو يهوديته بقدر اهتمامي بالفكر الكامن في نص هذا الكتاب. بالمناسبة، النقمة الحكومية داخل إسرائيل على أفكار هراري تفوق قرارات منع ومصادرة كتبه في البلدان العربية. وتلك مفارقة تراجيدية يعيشها عالم الاجتماع البارع، عندهم وعندنا!

كان الموسيقار العراقي اليهودي صالح الكويتي لا يتوقف عن سماع الإذاعة العراقية من منزله المتواضع في تل أبيب، ويتأسى بمرارة عندما يستمر بث ألحانه بأروع الأصوات العراقية من دون ذكر اسمه، تحت ذريعة أنها من الفلكلور العراقي، بينما ملحنها الذي هاجر إلى إسرائيل مازال حيا آنذاك. لم يكن بمقدور الإذاعة العراقية منع ألحان صالح الكويتي بأصوات سليمة مراد وزكية جورج وعفيفة إسكندر... لأنها تؤرخ لتأريخ من الولع والوله العراقي بالغناء، وكان يتم التغاضي عن اسمه لكونه هاجر إلى إسرائيل، بقي صالح الكويتي يعيش غصة مصادرة اسمه في الإذاعة العراقية حتى وفاته عام 1986.

قصيدة الشاعر يهودا عميحاي نجحت في تقبّل الطلاب الفلسطينيين لها بينما فشلت كل خطابات السياسيين وأين في غزة المكان الأكثر ألما وضررا من الغطرسة الإسرائيلية وخطاب حماس الأجوف

فهل بمقدور أي من الأنظمة السياسية اليوم امتلاك ذريعة منع نص شعري لمجرد أنه لشاعر إسرائيلي؟ إذا كانت توجد مثل تلك الأسباب على ضعفها، هذا يعني توقف نشرات الأخبار عن بث أي خبر مصدره إسرائيل. دعك من الموقف السياسي، لك الحق بما تشاء كيف تنظر إلى إسرائيل. لكن لا تمنعني من قراء كتاب لمؤلف إسرائيلي، ولا تغمرك السعادة لأنني سأفكك مضمون ذلك الكتاب عندما أكتب عنه. كما لا تعبر عن كراهيتك لي لأنني سأبدي إعجابي بمتن الكتاب!

لم تكن مثل هذه المعادلة قائمة في الضفة الإسرائيلية، حتى وإن كان ينظر بازدراء لقصائد محمود درويش مثلا، فقد تحولت قصيدته "عابرون في كلام عابر" إلى موضع غضب إسرائيلي حينها، لكن لم يكن بمقدور السلطات مصادرة القصيدة أو منع تداولها عن القراء. بل إن التطرف الإسرائيلي في محاصرة موسيقى ريتشارد فاغنر المفضل بالنسبة إلى هتلر يفوق أيا من قصائد درويش، مع ذلك توجد جمعية إسرائيلية للدفاع عن موسيقى فاغنر في مواجهة عدها من المحرمات التي تصنف ضمن كراهية السامية، بيد أن فاغنر توفي قبل أن توجد إسرائيل!

يقول المحامي جوناثان ليفني رئيس جمعية فاغنر في إسرائيل "نحن لا نذيع آراء هذا المؤلف الموسيقي، وإنما نذيع موسيقى رائعة ألفها". وأضاف ليفني الذي كان أبوه أحد الناجين من الهولوكوست "من لا يريد الاستماع إلى الموسيقى، فليسكت المذياع". يمكن أن نعيد نفس الكلام بوجه من يريد منعي من مطالعة رواية إسرائيلية. آلا يقرأها لكن لا يمنعها عني.

اليوم لدينا قصة مثالية وميدانها ليس أي دولة عربية، وإنما قطاع غزة. مصدرها رفعت العرعير الأستاذ في كلية الآداب في الجامعة الإسلامية في مدينة غزة. عندما وزع نصا شعريا على طلبته من دون أن يذكر اسم الشاعر: على سطح منزل في البلدة القديمة/ الغسيل معلق في ضوء الشمس في وقت متأخر/ الملاءة البيضاء لعدوتي/ منشفة الرجل أيضا لعدوي.

لم تكن تلك القصيدة التي تجسد مشهدا مرسوما من ضواحي مدينة القدس القديمة معروفة للطلبة في تلك الجامعة. وعندما سأل الأستاذ تلاميذه بعد أن وزع عليهم النص لتحليل مضمونه. لمن تلك القصيدة، هل تعرفون؟

أجمعت كل الإجابات على أنها لشاعر من القدس المدينة التي طالما اعتزوا جميعا بها، ويحلمون بزيارتها مع استحالة قدرتهم على مغادرة قطاع غزة؟ وبعضهم عبر عن توقعه أنها لشاعر فلسطيني من القدس يحدق من بعيد لحبل غسيل في منزل إسرائيلي. وقالت طالبة أخرى ليس بمقدور أي إسرائيلي أن يكتب بمثل هذا الدفء عن القدس، إنها بالتأكيد لشاعر فلسطيني!

لكن الصدمة كانت مضاعفة عندما أخبرهم الأستاذ أنها للشاعر الإسرائيلي الراحل يهودا عميحاي. ارتفع الضجيج في المدرج بين الطلبة. حار الطلبة وكان جميعهم من الفتيات وهموا مع أنفسهم بمراجعة إجاباتهم عن الشاعر الفلسطيني الذي صار إسرائيليا.

ذلك الدرس الذي حصل في إحدى قاعات الجامعة الإسلامية في غزة سيهشم الصورة السائدة بأن سكان غزة لا يتفاعلون إلا مع الأخبار التي تتحدث عن الصواريخ الإسرائيلية العمياء، وأن سكان إسرائيل لا ينظرون إلى مناهج التعليم الفلسطينية إلا بكونها نصوصا للتحريض الإرهابي. قصيدة عميحاي الذي يعد من بين أهم المؤثرين في تاريخ الشعر الإسرائيلي، فندت تلك الصورة السائدة. هناك ما هو أهم يمكن أن نفهمه عن الآخر عند مطالعة مدونته الأدبية والفكرية.

ذلك ما وضحه الأستاذ رفعت لطلبته بأن قصيدة القدس لعميحاي تعد مثالا على إنهاء الانقسام بين الأفراد بغض النظر عما إذا كانوا فلسطينيين أو إسرائيليين، مثلما تمثل القدس المدينة المثالية التي تجمع الجميع بغض النظر عن الدين والمعتقد. مثل هذا الكلام فشل كل السياسيين في إقناع الناس به، إلا أن الشعر وحده نجح وأين في غزة المكان الأكثر ألما وضررا من الغطرسة الإسرائيلية وخطاب حماس الأجوف.

خدعة الأغلبية الطائفية في العراق

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

تحولت معظم التقاليد السياسية الطائفية التي قدمها المحتل الأميركي عن قصد ودراية ضمن هديته سلطة الحكم للأحزاب الشيعية في العراق إلى قوانين مفروضة على الشعب بقوة السلاح وليس الدستور رغم هزالته. قُدمتْ لهؤلاء وسيلة السلاح والعنف كخيار رئيسي لأنه لم يكن يمتلك مشروعا للبناء والتطوير بل التدمير الذي ابتدأ بزمنه الاحتلالي السيء.

كانت سياسة نظام ولي الفقيه الإيراني أكثر شراسة وأقسى وأمرّ من ممارسات المحتل الأميركي على يد أتباعه في العراق ممن ادعوا مناصرة المذهب والتشيّع تنفيذا لسياساته التوسعية حيث ادعى الولاية على المسلمين داخل إيران وخارجها رغم أن الطائفة الشيعية هناك لا تمتلك الأغلبية العددية، النظام لا يناصر غير الشيعة التابعين له ويحارب الشيعة العرب في العراق، دليل سياسته الاستعبادية انحيازه لأرمينيا ضد أذربيجان ذات الأغلبية الشيعية.

هذا الإكراه والتجبّر على العراقيين بفرض حكم الأحزاب الشيعية الموالية لطهران لم يحصل صدفة أو ناتجا عن إفرازات انتخابية محلية شخّصت لأول مرة في تاريخ عراق ما بعد 2003 اغتراب القوى الولائية عن الناس وعن جمهورهم الشيعي الخاص في نتائج انتخابات 2021، هذا التوصيف ليس تعبيرا عن نظرية المؤامرة، بل هو مظهر من سياق سياسي ممنهج وحقائق نقلتها وقائع ما تعرض له العراق الحديث أخطرها احتلاله عسكريا عام 2003 بشراكة أميركية – إيرانية.

ليس من باب التعظيم القول بأهمية العراق فهو مركز صراع إقليمي ودولي إضافة إلى عمقه الحضاري ما تتوفر فيه من عناصر وأدوات الحياة المعاصرة القادرة على إنهاء عوامل التخلف والجهل والتفكك وظروف الحروب العبثية إذا ما قادته دولة مدنية ديمقراطية ذات سيادة حقيقية خادمة لشعبها، لا أن تحتله دولة كبرى ادعت انفرادها بالقوة العالمية وحوّلت وجعها من إرهاب القاعدة في واقعة عام 2001 للتحالف مع طهران الموجوعة من هزيمتها أمام جيش العراق كتبرير لتحالف الشر في احتلال العراق وتدميره.

قبل احتلال العراق بعقد زمني وُضعتْ الأرضية الفكرية والسياسية في واشنطن لتدميره عبر تفكيك مجتمعه طائفيا من قبل دوائر اليمين المحافظ بزعامة صقور الحرب ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وولفيتز وتلميذهم الميداني الأفغاني الأصل زلماي خليل زادة في استحضار مغشوش لفكرة المظلومية الشيعية التي سبق لمحتلي العراق الإنجليز أن رعوها وشجعوها خلال صراعهم مع العثمانيين وطردهم بالحرب من العراق والمنطقة.

لهذا استقبلت دوائر الاستخبارات والبحوث الأميركية وشجعت عددا من الباحثين ومنظري الفكر السياسي التقليدي والمتجدد المتناغمين مع مشروع تفكيك المنطقة والعراق، بصورة خاصة إثنيا وعرقيا، للسيطرة والنفوذ في منطقة الشرق الأوسط والعراق بصورة خاصة وتحويل بذور التنوع الطائفي في هذا البلد إلى مادة للصراع السياسي ظاهره تقاسم السلطة، وحقيقته إعادة العراق وأهله إلى أرذل تقاليد التخلف التي تسبقها حياة القبائل في أدغال أفريقيا بقرون.

كانت المناورة الفكرية والسياسية تدور بين خياري هيمنة شيعة إيران على السلطة في العراق أو تقسيمه إثنيا إذا ما تمرّد السنّة ولم يُدجَنوا مثلما حصل في أعوام ما بعد نتائج انتخابات 2010 الهزلية. يبدو أن خيار هيمنة شيعة إيران على السلطة في بغداد مازال هو المُفضل على خيار تقسيم العراق.

أواخر الثمانينات كان من أمثلة هؤلاء الأميركان المنظّرين المناهضين لوحدة العراق وانسجام مكوناته وتشجيعهم لفكرة تقسيمه، مايلز كوبلاند والمستشار في البيت الأبيض آلن توبول الذي قدم بعد نهاية الحرب العراقية – الإيرانية خارطته لتقسيم العراق داعيا للإسراع بتقسيمه قائلا إن "عدد دول العالم حاليا 193 دولة وليست هناك مشكلة إذا أصبحت 196 دولة، في إشارة إلى 3 دويلات ناتجة من تقسيم العراق". فيما روّج خليل زادة للفكرة التي يحييها الآن الرئيس جو بايدن الداعية إلى تقاسم النفوذ بين إيران خامنئي والولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي.

عام 2002 كشف مركز ستراتفور للدراسات أن الاستراتيجية الأميركية بعيدة المدى التي تعقب غزو العراق هي تقسيمه إلى ثلاث مناطق منفصلة منطقة سنية في الوسط تنضم إلى الأردن، ومنطقة شيعية في الجنوب تنضم إلى الكويت أو إيران، ومنطقة كردية ضمنها الموصل وكركوك. لهذا لم يخرج مشروع التقسيم الطائفي للرئيس الأميركي بايدن والمصادق عليه من الكونغرس من فراغ.

كان من الضروري أيضا ترويج فكرة الغالبية الطائفية الشيعية على أيدي مفكرين وصحافيين عراقيين وعرب، أولهم الكاتب اليهودي حنا بطاطو الذي وقع في الأخطاء التاريخية لفكرة الأغلبية السكانية للشيعة في العراق، فلم يستند على وقائع إحصائية لسكان العراق، بل تحوّل ظنّه إلى مصدر اتبعه الآخرون في استغلال مُغرض للظروف السياسية الطارئة التي مرت بالعراق من بينها غياب الديمقراطية الحرة داخل البلد خصوصا بعد اجتياح صدام للكويت عام 1990.

رغم ليبرالية الكاتب العراقي حسن العلوي لكنه وقع في محظور فكرة "الغالبية الشيعية" دون استناده على حقائق إحصائية معتبرة بل بردود فعل ظرفية، أو الكاتب اللبناني إسحاق النقاش الذي رسّخ المظلومية الشيعية، وتأسف في كتابه "شيعة العراق" على عدم قيام الدولة الشيعية في العراق منذ أوائل القرن الماضي قبل قيام الدولة الملكية المدنية.

تسويق الأغلبية العددية للشيعة في العراق هدف سياسي سبق أن قدمه المحتلون الإنجليز للعراق في وقت مُبكّر حيث رفض السياسي الوطني كامل الجادرجي هذا المنهج الطائفي قائلا "إن تشجيع الإنجليز للشيعة كان يجري بمختلف الأشكال ومن أمثلة ذلك تحريضهم على جعل الطائفية مَثَلهمْ الأعلى". وتساءل: لمَ لمْ يؤخذ بأرقام إحصائية لنفوس العراق في ولاياته الثلاث بغداد والبصرة والموصل التي نشرت سنة 1920 عن حكومة الاحتلال الإنجليزية التي أظهرت أن نسبة السُنّة 48.81 في المئة، ونسبة الشيعة 42.31 في المئة، ونسبة اليهود والنصارى 7 في المئة، ونسبة الأديان الأخرى أقل من 2 في المئة.

الخيار العملي الذي تحقق بعد عام 2003 بصورة أذهلت المسؤولين الأميركيين عن الملف العراقي وبعثت الارتياح في نفوسهم سرعة صعود الشيعة الموالين لطهران حيث ولدت الميليشيات المسلحة، وقلّدت ميدانيا وسائل الاحتلال الأميركي في القتل الجماعي والتغييب الفردي من خلال فرق الموت وسجون وزارات الحكم الجديد، إلى جانب الخدمات الخيالية التي قدمتها لهم إجراءات وقوانين الاحتلال الأميركية السائدة بحماسة لحد الآن، مثل قرار حل الجيش الوطني العراقي وفرض العقوبات الجماعية ضد منتسبي حزب البعث المنحل.

لم يتم بناء الأطر السياسية المحلية المُشجّعة والمُشرعنة للهيمنة الإيرانية في العراق بمعزل عن المشروع الاستراتيجي بالإذعان لفكرة الأغلبية العددية الطائفية، هذه النظرية الطائفية لكي تأخذ مداها الواقعي كانت بحاجة إلى عمليات تغيير ديموغرافي في المناطق العربية السنية، وتهجير سكانها بالقوة من مناطق عيشهم التاريخية مثال ذلك مدينة جرف الصخر القريبة من العاصمة بغداد أو حاليا فيما يسمى بحزام بغداد ومدن سامراء وتكريت والموصل وديالى. إلى جانب تكريس أزمة النازحين من المحافظات التي احتلها داعش عام 2014 وتوطين مئات الألوف من الإيرانيين المجنّسين كعراقيين.

لكي تسوّق فكرة الغالبية الطائفية العددية "الشيعية" ويتم الإذعان لوهمها على مستوى الفعاليات السياسية ومَفصَل الانتخابات لا بدّ أن تتحول تلك التقاليد المزوّرة إلى حقائق سياسية مفروضة في زمن هيمنة أدوات الاحتلالين الأميركي والإيراني، فيصبح رئيس الوزراء شيعيا مواليا لطهران، ورئيس الجمهورية كرديا مواليا للقيادة التاريخية الكردية والسنيّ مواليا متعدد الرؤوس، وأن تبقى سيادة الحكم لشيعة إيران رغم رفض شيعة العراق الموالين لوطنهم.

ليس غريبا أن نسمع اليوم من المهزومين في الانتخابات الأخيرة عبارات ومصطلحات مباشرة لا علاقة لها بالتقاليد الديمقراطية التي أعلنوا التزامهم بها كقصة الأوزان السياسية وليست الانتخابية رغم انكشاف تلك الأوزان وعزلة تلك القوى عن الشعب، أو الأطروحة الطائفية الغالبية الشيعية وليست الأغلبية الوطنية أو أن هذه الدولة الشيعية هي دولتنا ولا نسمح بالتفريط بها، لسبب بسيط هو أن مقتدى الصدر طرح مشروعا عراقيا إن صمد خلفه سيؤسس لميلاد مشروع عراقي متوازن لا طائفي حتى وإن كان مُنظره وقائده شيعيا.

ليست مشكلة العراقيين كشعب أن تكون غالبيتهم السكانية شيعة أو سنة أو حتى أكرادا، فاللحمة الاجتماعية والهوية الوطنية العراقية الجامعة هي المقياس الحقيقي لحياتهم في ظل نظام مدني يخدم كل الشعب بلا فوارق. لعل شيعة العراق الأصلاء هم أول من واجهوا سياسة حكم الأحزاب وميليشياتها التي قتلت وجرحت الآلاف من أبناء الشيعة الشباب لأنهم رفضوا النظام وتبعيته للنظام الإيراني الذي يسوّق خرافة الأغلبية الطائفية لأغراض المنافع السياسية وتشبث وكلائه بالسلطة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk